العرب
الخميس 2019/12/12
السنة 42 العدد 11556

السينما وسيلة أبناء المهاجرين العرب لمواجهة التطرّف

علاوي سليم: معالجة ظاهرة العنف تتطلب عرض أصواتها للتصدي لها

يتخذ أبناء العرب في أوروبا من السينما سلما لتحقيق أحلامهم في القضاء على صورة المسلم النمطية في عقول شعوب بلدانهم الجديدة، والتأكيد على أن التطرف لا يرتبط بهوية دينية أو قومية.

هبة ياسين
كاتبة مصرية

«أبناء الدنمارك» يناقش قضية التطرف ولا يروّج لها

القاهرة – يواصل أبناء المهاجرين العرب في أوروبا توظيف السينما كوسيلة لتغيير الصور النمطية التي تطاردهم في المجتمعات الغربية ووصمهم بالتطرف والعنف، ويعتبرون الرسائل التي يمكن تضمينها عبر الأفلام تتجاوز في تأثيرها كثيرا المؤتمرات والتحركات الرسمية.

ولا تخلو المهرجانات العالمية حاليا من أعمال شباب يحملون دما عربيا أوروبيا مشتركا أو أبناء مهاجرين من الجيلين الثاني والثالث، ويقدّمون العالم الغربي في صورة غير معتادة عبر إثارة قضايا الهوية والانتماء ومشكلات اللجوء والاندماج ورحلات الهجرة غير الشرعية، بجانب قضيتهم الأساسية المتمثلة في الإرهاب والعنف.

ضحايا أبرياء

يبدو المخرج علاوي سليم (32 عاما) المولود في الدنمارك من أصول عراقية، من المخرجين الذين يسلكون ذلك النهج سواء عبر آخر أعماله الطويلة أو القصيرة على حد السواء والتي كان في مقدّمتها "أبناء الدنمارك" أو "أخي" و"أبناء آبائنا" و"منفى"، وتدور جميعها في فلك مواجهة مشكلة التطرف أو مشكلات الاندماج.

ويقول المخرج الشاب في حواره مع "العرب"، على هامش مشاركته في مهرجان القاهرة السينمائي في دورته الـ41 التي انتهت مؤخرا، إن السينما هي المكان الجيد لمناقشة القضايا التي تهم العالم حاليا، فأعماله لا تركز على موضوع واحد، بل تتطرّق إلى عدد من المشكلات، وعبر مستويات متشعّبة في القصص التي يقدّمها.

وتحاول أعمال المخرج العراقي-الدنماركي وضع جميع العناصر الرجعية، اليمين الفاشي أو المهاجرين العرب المتطرفين، في مواجهة جرائمهم، مستشرفا مستقبلا يسوده التشاؤم حول اشتعال عنف دام بين طرفي الصراع اليمين المتطرف والإسلام الراديكالي، وسقوط ضحايا أبرياء بين الطرفين.

ويقدّم علاوي خليطا في أعماله من الممثلين العرب بين عراقيين ومصريين وفلسطينيين وأردنيين، ليجسد بعدالة تنوّع منطقة الشرق الأوسط وجذور الشخصيات الوافدة منها، أو ربما كي يعلن عن شعار واضح المعاني، مفاده: أن جميع العرب مهما كانت بلدانهم في الهم سواء.

ويؤكد أن فيلمه "أبناء الدنمارك" الذي يحمل اسم حركة متطرفة تدعو لطرد المهاجرين وعودة الدنمارك لأبنائها فقط، يناقش أزمة تنامي اليمين المتطرف والنازيين الجدد في أوروبا متبنيا وجهة نظر ترى أن العنف لا يولّد إلا عنفا، حتى أن بطل الفيلم، مالك، الذي طالما تبنى السلام كمنهج للحياة تخلى عن مبادئه وتحوّل إلى النقيض لتصبح دائرة الدم المُفرغة لا تنتهي.

ويضيف أن "أبناء الدنمارك" الذي تدور أحداثه عام 2025 بمثابة استشراف المستقبل القريب للمجتمعات المحتقنة بالتطرف بين كل الفئات، ورغم أنه ولد في بلاد يفترض أنها متحضرة، إلا أن ثمة أحداثا جمة أخرى تدور رحاها في الأعماق شبيهة بالفحم المشتعل تحت التراب، وقد يتكرّر السيناريو الذي رسمه بتفاصيله المأسوية، إذا استمر الخطاب المتطرّف والتحريضي في إشعال تلك الفتنة الخامدة.

أثار الفيلم جدلا في المهرجانات التي عرض بها، بسبب نهايته الدموية والتي تم تفسيرها بأن الاضطهاد والعنصرية هما السبب للإرهاب، لكن سليم يرى في حواره مع "العرب" أنها ليست الرسالة المنشودة بل هدفه الأساسي فتح نقاش حول قضية التطرف عموما وليس الترويج لها، والانطلاق إلى الصراع من أجل الحياة، والخوف والكراهية من الآخر الذي أصبح مظهرا شائعا في كل الشخصيات.

> المخرج العراقي-الدنماركي علاوي سليم لا يفرق في أعماله بين اليمين المتشدد والإسلام الراديكالي، فالتطرف عنده لا يرتبط بدين أو هوية

ويضرب المخرج الشاب مثالا بتاريخ السينما العالمية الذي يتضمن أفلاما كثيرة حول المعارك الحربية بكل تفاصيلها من عنف ودماء لكنها في مضمونها تناهض الحرب، وتضمين العنف وإظهار الشخصيات والآراء المتطرفة لا يعني بالضرورة مساندتها، فمعالجة الظاهرة تتطلب عرض أصواتها كي يمكننا التصدّي لها بشكل منطقي.

ضد الشعبوية

تشهد الأفلام العربية سواء أكانت قصيرة أم طويلة نشاطا في المهرجانات الأوروبية كتعويض عن ندرة عرضها بالصالات ودور السينما التجارية، إضافة إلى أنها أصبحت بمثابة محطة لقاء بين المبدعين العرب الذين يقيمون في الداخل وأبناء أوطانهم بالخارج.

ويوضح علاوي أن أحداث فيلمه تنطلق من تفجير إرهابي ضخم في العاصمة كوبنهاغن، حيث يتنامى التيار المتطرف في البلاد، وتتصاعد الصراعات العرقية مع اقتراب الانتخابات البرلمانية، ويصعد نجم قيادي يميني معاد للمهاجرين، وترتفع حملة استهداف الأقليات الشرق أوسطية فيما يتورّط شاب من أصول عربية مع جماعة متطرفة تستخدمه لتحقيق أغراضها.

وتظهر الرسالة التي يريد المخرج توصيلها بجلاء في أعماله مثل فيلم "أخي" الذي يروي قصة شابين من أصول عربية في أوروبا يبحثان عن كيان لنفسيهما قبل أن يقعا في فخ عالم الجريمة وتجارة المخدرات، أو "أرض الآباء" عن فشل عربي في مواصلة العيش بالدنمارك واضطراره إلى طلاق قاس أدى لانقطاع علاقته بابنه الوحيد، فيعود إلى الأردن ويختلق العديد من الأعذار لحثّ ابنه على العودة معه للخارج.

ويحاول المخرجون الشباب في المهجر أو في بلدانهم تغيير الصورة النمطية التي تظهر المسلم أو العربي في الغالب كإرهابي وقاتل وشهواني يسيء معاملة النساء، وشرس محب للدماء والتي ترسخت بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، ليدحضوا لغة التعميم التي تسيطر على الأعمال الغربية، وتوضيح حقيقة التطرف والعنف كتيارات لا ترتبط بدين أو هوية.

ويشير المخرج العراقي إلى أن الأسباب التي تحمل المرء إلى التطرّف مختلفة، لكن يجمع بينها خيط واحد هو الإحساس أن العالم مكان الظلم، وجاءت ردود أفعال الدنماركيين على أفلامه طيبة، فكل من المواطنين الأصليين والمهاجرين يخشون على البلاد من تصاعد دائرة العنف في المستقبل، ويبحثون عن سبل للعيش المشترك سويا.

ويكتسب الوجود السينمائي العربي زخما أكبر من وصول بعض أبناء المهاجرين إلى دور البطولة في أعمال عالمية مثل مينا مسعود الكندي من أصل مصري الذي لعب بطولة فيلم "علاءالدين"، أو رامي مالك الأميركي الذي يحمل الأصول ذاتها وفاز بجائزة أوسكار عن فيلم "الملحمة البوهيمية"، الذي فتح الباب على تقديم صورة لقاطني المنطقة كشعوب مبدعة محبة للفن.

ويجسّد المخرج العراقي في أعماله أزمة الهوية التي يعيشها العرب المهاجرون، من العيش بمجتمعات توفر الأمان لكلّ مَن لجأ إليها هربا من الظلم أو الحرب في بلده، لكن بعضهم لا يستطيع الاندماج ويشعر بالانفصال عن المجتمع، على عكس الأبناء الذين يعتبرون دول المهجر وطنهم بشكل ما، فهي البلاد التي يعيشون فيها ولديهم الاستعداد للحرب من أجل التغيير داخلها.

وتدعم بعض الجهات الرسمية الأوروبية تلك النوعية لمواجهة صعود الحركات المتطرفة بوجه عام، كالحكومة الدنماركية التي ساهمت في تمويل فيلم "أبناء الدنمارك".

> أعمال علاوي سليم تحاول وضع جميع العناصر الرجعية، اليمين الفاشي أو المهاجرين المتطرفين، في مواجهة جرائمهم

ويلفت علاوي في حواره مع "العرب" إلى أن السيناريو والقصة تمت مناقشتهما مع المموّل الحكومي، لكنه حصل على الحرية الكاملة في اتخاذ القرار الذي يريد في تقديم العمل، دون وصاية أو رقابة على الفنّ، طالما أنه لا يخالف القوانين.

تخشى أوروبا من صعود اليمين المتطرف الذي يحرّض على اتخاذ إجراءات مناهضة للإسلام والمسلمين، وتكوّنت جماعات متطرفة مثل حركة "أوروبيون وطنيون ضد أسلمة الغرب" التي تسعى لتشكيل جبهة موحّدة لليمين المتطرف.

ويؤكد المخرج الشاب أن كل ما يقوله رجال السياسة في أعماله حقيقي، بل يقول السياسيون في الدنمارك ما هو أفظع منه بخطاب يستخدم لغة التحريض والعنف ضد المهاجرين.

قبل سنوات، كان الحزب اليميني المتطرف "هارد لاين" مجهولا بالدنمارك قبل أن تتزايد شعبيته بسرعة مع ضجة أثارها زعيم الحزب راسموس بالودان بتنظيم مظاهرة مناهضة للإسلام في أبريل الماضي بحي نوربرو المتنوّع عرقيا في العاصمة تحت شعار "أوروبا لنا"، وأدت إلى اشتباكات عنيفة بين المحتجين والشرطة ومخاوف من تزايد ظاهرة "الشعبوية".

«شبح مدار» رحلة لامرأة وحيدة في ليل بروكسل البارد

سعد القرش
روائي مصري

في الفيلم الوثائقي المصري "احكيلي" الفائز بجائزة الجمهور في مهرجان القاهرة السينمائي 2019، تقول الأم لابنها يوسف شاهين، خال المخرجة ماريان خوري، إنها لا ترى في صناعة فيلم وثائقي عن العائلة فكرة تستحق الاهتمام، لأنها "عائلة بسيطة"، تخلو حياتها من الأحداث الكبيرة، فلا جريمة ولا طلاق.

ولكن شاهين، الذي صنع من حياته ومن سيرة العائلة عدة أفلام روائية بداية من "إسكندرية ليه؟"، يوضح لأمه أن الجرائم وقصص الطلاق تصنع دراما سخيفة وتافهة، وأن التفاصيل البسيطة والصغيرة تصنع دراما أكثر عمقا. وإلى هذا النوع الذي قصده يوسف شاهين ينتمي الفيلم البلجيكي "شبح مدار" الفائز بجائزة الهرم الفضي في مهرجان القاهرة السينمائي الذي اختتم 29 نوفمبر الماضي.

الليل ملهم الفنانين، هكذا رسم المخرج البلجيكي باس ديفوس في فيلمه "شبح مدار" جدارية لليلة واحدة في شتاء العاصمة البلجيكية بروكسل، بألوان تتراوح بين الأسود ودرجات الرمادي، من ديكور الأثاث في النزل، ومن ثياب بطلة فيلمه، خديجة، ومن ردهات المستشفى، ومن ظلال البنايات وما بقي مفتوحا من المحال التجارية.

رحلة في ليل المدينة لامرأة وحيدة تصنع فيلما هامسا مراوغا يبدو كأنه تحضير لفيلم، فلا لغز تسعى إلى فك شفرته، ولا مشكلة تؤرقها وننتظر أن تجد لها حلا. وإنما هي تفاصيل صغيرة تجد خديجة (الممثلة الفرنسية ذات الأصل الجزائري سعدية بن طيب) نفسها منخرطة فيها، من دون قصد أو تخطيط، وتسعى إلى معرفة مدينة تقيم فيها، تقيم وكأنها لا تعيش فيها. وبهذه الرحلة الليلية تعرف نفسها أكثر.

يبدأ الفيلم بمشهد ثابت لأثاث بسيط في غرفة متواضعة ينسحب منها تدريجيا ضوء النهار القادم من نافذة لا تحول دون اقتحام الصخب. ويستغرق المشهد بضع دقائق تمهّد المشاهد لمتابعة فيلم إيقاعه الهادئ جزء منه، هو إيقاع يحث المشاهد على الإنصات إلى صوته الداخلي، وأن يغمض عينيه ويتأمل ذاته أيضا، ثم يفتح عينيه فلا يفاجأ بحلول الليل، فالليل يأتي ومعه خديجة عاملة نظافة، ذات الأصل العربي، بصحبة زملاء في جلسة صاخبة بالنقاش العفوي والضحك.

في المشاهد الأولى تقترب الكاميرا من خديجة، في لقطات مقربة توحي بالرضا والتصالح النفسي، ثم نتابعها تؤدي عملها وهي في "الحجم" الطبيعي لامرأة وحيدة، صغيرة وسط مساحات وأماكن واسعة وبنايات ضخمة.

وتستقل المترو في رحلته الأخيرة، للعودة إلى بيتها، ومن الإرهاق تغفو، وتدريجيا تخلو من حولها المقاعد، لتفيق في نهاية الخط، وليس معها نقود تسمح لها باستقلال تاكسي، فتضطر إلى العودة سيرا على قدميها، وتمنعها كبرياؤها عن مدّ يدها إلى أحد، بعد أن جرّبت ماكينة صرف النقود في الشارع ولم تجد رصيدا، وقالت لأحدهم إن كل شيء على ما يرام.

المرأة التي بدت صغيرة وسط الكيانات الكبيرة ستكون في الليل مجرد شبح غير مرئي. وتقرّر خديجة أن ترى، وأن تجرب حقها في اكتساب المعرفة بمدينة "تقيم" فيها منذ نحو عشرين عاما، ومنعتها رتابة الحياة أن "تعيش" وتدرك جوانب كثيرة منها.

واختار مخرج الفيلم، انطلاقا من هذه المصادفة، أن نرى بروكسل أخرى، صوّرها بنعومة وحنوّ ودفء مدير التصوير جريم فاندكيرشوف بعيني امرأة خمسينية محجبة، تخوض في الأضواء والعتمة، وتقابل صنوفا من البشر يتوجب عليها أن تساعدهم، أو تدل آخرين من الممرضين في مستشفى أو من رجال شرطة على مساعدتهم.

وهكذا تشعر في شتاء المدينة بالدفء والفاعلية، وبأنها قادرة على المغامرة ولو بدخول بيت قديم خال إلاّ من ضوء شحيح، ثم يصادفها أمام البيت رجل ويرتاب فيها، ويتفادى المخرج الإشارة إلى أن مصدر الشك هو هيئة خديجة وثيابها الدالة على ديانتها، ولا تتردّد خديجة في القول إنها عاملة نظافة، ويعرض عليها الرجل أن تعمل في بيته، فتقول بكبرياء إنها لا تنظف الأماكن الخاصة.

لا تتخلى خديجة عن سكينة روحية تلازمها وتمدّها بمحبة الأرواح الوحيدة، بداية من مشرّد ينام في الشارع ويحتاج إلى رعاية، وببغاء في قفص يعيش وحيدا بعد موت ثلاثة ببغاوات كانت تؤنسه في القفص.

> الفيلم عن تفاصيل صغيرة تجد البطلة نفسها منخرطة فيها، ساعية إلى معرفة مدينة تقيم فيها، تقيم وكأنها لا تعيش فيها

خديجة أيضا وحيدة منذ مات زوجها وترك لها ابنة مراهقة لا نسمعها ولا نراها عن قرب، وتكاد ابنتها تكون ضمن، أو مثل، مراهقين يتناولون الخمور في الشارع، وتتبعهم خديجة بصمت وشفقة من حيث لا يرونها، مثل شبح يراقب الناس ولا يشعرون به. ثم تذهب إلى شرطي لتنبهه إلى أن أحد المحال يبيع الخمور لمراهقين دون السن القانونية.

بروكسل في فيلم "شبح مدار" ليست باريس التي كانت مسرح أحداث فيلم وودى آلن "منتصف الليل في باريس"، كما تختلف عن القاهرة التي دارت فيها أفلام كثيرة في ليلة واحدة، ومنها "ليلة ساخنة" لعاطف الطيب، و"أرض الأحلام" لداود عبدالسيد، و"الفرح" لسامح عبدالعزيز، و"ليل خارجي" لأحمد عبدالله السيد.

في معظم هذه الأفلام حمولة فكرية ترهق الفيلم، رسائل تتغذى عليها الدراما بأنصبة جائرة على الفن أحيانا، عبر مُخرج يبدو كليّ المعرفة، يستعين بجموع من البشر يوزّع عليهم ما يؤرقه أو يتمناه، بأدوات مختلفة لونية وصوتية وحوارية.

ولكن مخرج فيلم "شبح مدار" يوحي بالتخلي عن هذه المعرفة الكلية، ويستغني عن ثراء بصري تتمتّع به المدينة، ويرسم لوحة ليلية متقشفة، فيها فراغات يملؤها المشاهد المتفاعل مع بطلة تبدو، في أغلب المشاهد، صامتة صمتا أبلغ من "الكلام". وتنتهي الرحلة بعودة خديجة إلى المنزل، ويغلق القوس بمشهد البداية معكوسا، حيث تشرق الشمس ويغمر الضوء أثاث الغرفة، لتكتمل أنشودة البساطة.

تفاصيل بسيطة تصنع دراما عميقة